

## " محمد بن أبي شنب 1869 م - 1929 م "

### أصالة وحداثة ..... إيمان وأخلاق وعلم

الأستاذ محمد الصالح الصديق

باحث وكاتب



د. محمد بن أبي شنب

## تمهيد :

عندما تنفرد بنفسك في خلوة تأملية وتسرح فكري في تاريخ الجزائر تستعرض أحقابا من تاريخها العلمي والثقافي تشد انتباهك حقبة غنية بأقطاب العلم ورجال الثقافة الذين استطاعوا أن يرفعوا مكانة الجزائر عالية ويوجهوا إليها الأنظار.

ورقي الأمم وازدهارها مرهون بما يتوفر فيها من قادة الفكر وأقطاب العلم على حساب توافرهم وجهادهم في سبيل إنارة جوانب الحياة ، ومن أجل التربية والتعليم والتوجيه والإصلاح يكون تقدمها وتكون قوتها ومكانتها بين الأمم . وتتجلى مكانة العلماء وأهميتهم وأثرهم البالغ في المجتمعات لمن نظر في الأمم الفقيرة من العلماء فإن الناس فيها لا يأبهون إلا بما تسوقهم إليه حاجاتهم ، ولا يهتمون إلا بمطالبهم الجسمية ولا يفكرون في مصائر الأمور ونتائجها ، ولا يحاولون أن يفقهوا شيئا من أسرار الطبيعة وظواهر الكون ولا يفكرون في رقي الأمة أو انحطاطها وتحلفها وهمهم أن يعيشوا وينتظروا الموت ولا شيء غير هذا علماء لهم من المقدرة النفسية والعلمية ما — هذا شأنها — فإذا بعث الله في أمة يبوئهم الصدارة فيها ويجعلهم لها قادة ومعلمين ومربين مصلحين ، وهداة رشدين ارتقوا بالعامية إلى العلا ، فصاروا إلى مستوى آخر تفكيراً وأخلاقاً وسلوكاً.

وهكذا شاهد التاريخ حقبة من الزمن أنجبت فيها الجزائر أعلاما خدموها بخدمة دينها ولغتها وقرآنها وهذه الحقبة تتمثل في أوائل القرن الثالث عشر الهجري

وأوائل القرن الرابع عشر أي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، وهذه الفترة ساهدت نهضة عربية اسلامية لها صفحاتها المشرقة في تاريخ النهضة الحديثة .

وإذا كانت قائمة العلماء ، على اختلاف كفاءاتهم العلمية في هذه الفترة طويلة يعسر تتبعها باستقصاء فلا أقل من عرض أسماء طائفة منهم ، فعلى من يريد التوسع والمزيد أنيرا جمعطان هذا الموضوع القاضي أبو العباس أحمد العباسي المتضلع في الحديث والقراءات تولى القضاء ثم الخطابة بمسجد رحبة الصوف بقسنطينة (1)، والشيخ أحمد بن محمد المبارك خطيب المسجد الكبير ومفتي المالكية (2) والأديب الشاعر الذي نبغ بالخصوص في علم الفقه العلامة محمد الشاذلي تولى القضاء بمدينة قسنطينة (3) والعالم الكبير ابن الحسن علي الأونيسي الذي كان مضرب المثل في التضلع في علم الحديث حسبنا أنه ألف شرحا لصحيح البخاري في اثني عشر جزءا (4). ومن علماء الجزائر الأعلام الشيخ صالح بن مهنا الذي عاش حياته مقاوما للبدع و الخرافات داعيا إلى الإصلاح (5)، والعلامة الشيخ عبد القادر المجاوي الخبير بشؤون التربية والتعليم وألف فيها كتبنا نافعة (6)، والعلامة الشيخ عبد الحليم بن سماية المبرز في فنون اللغة وعلم الفقه والحديث والتفسير (7) والعلامة الشيخ محمد السعيد بن زكري الذي درس بزواوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بزواوة ثم ما يزال يسعى في طلب العلم بالجزائر العاصمة ، حتى أصبح مدرسا بالجامع الكبير ثم انتخب أستاذا للفقه وأصوله بالمدرسة الحكرسية وتولى إفتاء السادة المالكية سنة 1908 م وقد ألف كتابا في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل ذكر فيه عيوب التعليم فيها

واقترح طرقا لإصلاحها ، وكان له دوره الفعال في تكوين نخبة مثقفة لها أثرها الكبير في نشر العلم والثقافة بالجزائر (8)، والشيخ محمد بن مصطفى بن باكير بن الخوجة الملقب بالمضربة الشاعر الأديب والعالم بالشرعية الإسلامية (9)، والعلامة الشيخ المولود الزربي صاحب التأليف المفيدة في الأخلاق والعقيدة (10) والعلامة الدكتور محمد بن أبي شنب الكاتب البحاثة ، والذي تولى التدريس بكلية الآداب بجامعة الجزائر .

والواقع أن هذه الحقبة بالخصوص قد شاهدت أعلاما في مختلف أنحاء القطر الجزائري كلهم خدموا اللغة العربية ونشروا العلم وبذلوا الجهد في تبديد ظلام الجهل والضلالة ، وماالذين ذكرناهم إلا عينات يمثلون الجميع في الرغبة في تحصيل العلم والتفاني في نشره ، إذ كانوا في كل وقت رياضا وارقة ، ومنابع فياضة ، وملاجئ آمنة ومنازل هادئة ، وكل ذلك يقيم الدليل واضحا على أن الجزائر منبت العلماء ومهد الثقافة حتى في عهد الاحتلال المقيت كانت للجزائر نهضات علمية وإصلاحية قام بها علماء أجلاء ومفكرون عظماء .

ولعل من دلائل التوفيق أن ينشر الصدر لواحد من هؤلاء وهو الدكتور بن شنب وتتعلق الرغبة بالعناية به ونشر صفحات من تاريخه ، فإنه جدير بذلك وأكثر ، وأبناء هذا الجيل أجدر أن يعرفوا عنه وعن أمثاله من العلماء الأوفياء لدينهم ووطنهم ما يضيئ الطريق أمامهم إلى الحياة الكريمة ويعينهم على سلوكه بلا خوف ولا تردد ولا تعثر .

**ولادته ونشأته** : ولد محمد بن العربي بن محمد بن شنب بإحدى ضواحي " المدينة " تدعى " تاكبو " أو عين الذهب يوم الثلاثاء 20 من شهر رجب عام

1286 هـ الموافق يوم 26 من شهر أكتوبر 1869 م .

والمدينة مدينة مشهورة تبعد عن الجزائر - العاصمة - بنحو مائة ميل جنوبا .  
والذي يمكن استخلاصه من شتى المعلومات والأخبار التي تجمعت عندنا عن  
هذه الأسرة سواء عن طريق القراءة أو المشاهدة أو الاستنتاج هي أنها أسرة  
مثالية! والأسرة المثالية في نظرنا تقوم على دعائم عدة علم نافع ، وغنى غير  
مبطر وخلق كريم ، وسلوك قويم ، وقناعة وعفاف .

والأسرة التي تقوم على هذه الدعائم لا شك أنها أسرة مثالية ، وأنها المحضن  
الصالح للنشأة الصالحة التي إذا تكون منها ومن مثيلاهما المجتمع كان قويا يبنى  
الحياة ويصنع التاريخ .

والدعائم المذكورة متوفرة كلها في أسرة ابن شنب ، ومن عمق النظر في تاريخها  
اجتلاها بلا صعوبة أو تكلف ، مما جعلها من خير المحاضن وأثبتت جدارتها  
لأنجاب مثل هذه الشخصية المتفوقة علما وأدبا ونبوغا التي استوقفت ركب  
التاريخ وأملت عليه آيات من عبقريته وسجلها له بمداد الفخر والإعجاب .

ورغم يسار الأسرة وغناها وتميزها عن كثير من الأسر في المنطقة بتلك  
الخصائص والمميزات فإن ذلك لم يبطره ولم يحد به عن الجادة القويمية إلى الغرور  
والاستعلاء أو " الاستراخاء " بل عاش طفولته وغرة شبابه ، قويا في أخلاقه ،  
بعيدا عن الميوعة والسلبية ، قانع النفس ، عالي الهمة ، مرهف الحس ، سليم  
الفطرة وكان على ذلك كله قوي الملاحظة ، سريع الفهم ، ذكي الفؤاد ، إذا  
خرج إلى الطبيعة اجتلى جمالها ، واستلهم مناظرها ، وراح في تأملات يحاول أن

يفقه أسرارها ولا شك أن الأسرة ساعدته على سمو المدارك ، ونبل الأخلاق ... واعتدال السلوك واتزان النظر .

ويبدو أن هذه المواهب المبكرة التي حباه الله بها هي التي جعلته مرموق المكانة في الأسرة منظورا إليه بعين العناية والاهتمام " وقد ذكر أنه لم يسبق أن أغضب أهله يوما ولا يذكر قط أن أمه انتهرته يوما أو تجهمت في وجهه " (11) .

### دراسته :

لم يكد يبلغ سن التمييز حتى أدخله والده الكتاب القرآني مع أخيه " أحمد " بالمدينة فتلمذ على شيخ يدعى " أحمد بارصاق " ولنبوغه المبكر وشغفه بالقرآن استطاع أن يحفظه ويجيده في أمد وجيز ، ثم تعلم اللغة الفرنسية بالمدرسة الابتدائية بنفس المنطقة وأحرز فيها على الشهادة ، امكن بها من الانتظام في سلك المدرسة الثانوية " الكوليج " .

فانكب فيها على الدراسة بجدية وانضباط كعاداته ، ينهل منها ويظهر نبوغا لا يبارى مما جعله يحصل على مبادئ حسنة في التاريخ والجغرافية والحساب والطبيعات وغيرها من الفنون التي تدخل في هذا المضمار ولمواهبه الخاصة وتمكنه في هذه العلوم وإيناسه من نفسه على القدرة على المضي في طريق العلم والترقي في مدارجه سار وراء طموحه فانتقل إلى العاصمة وكله رغبة وحيوية ونشاط فالتحق بمدرسة المعلمين " ايكول نورمال " " Ecole NoRmal " بأبي زريعو وانخرط في سلك طلبتها وانقطع لدراسة العلوم فيها يجد وانضباط ، وكان إلى جانب الدراسة يطالع الكتب القيمة التي يكتنيها أو تصل يده إليها ، وكان لا يألو جهدا في الاستعانة بالأساتذة المبرزين في المدرسة والأخذ

بنصائحهم وتوجيهاتهم وكانوا يتعهدون بالعناية والرعاية لما يرون فيه من نبوغ واستعداد ووعد بمستقبل علمي باسم.  
وكان ذلك ديدنه وشغله حتى تخرج أستاذا في اللغة الفرنسية معترفا له بالتفوق والسلوك القويم .

ومع تمكنه في اللغة الفرنسية ، ومطالعه الواسعة العميقة الدائبة لكتب فلاسفتها فإنه لم ينجذب لمدينة الغرب ولم ينخدع ببريقها ولم يتأثر بممذاهبها المختلفة ، لسببين اثنين : هما المحضن الذي نشأ فيه وتربى والقرآن الكريم الذي سبق إلى القلب فتمكن فيه قبل أن ترد إليه فكرة أو مذهب أو اتجاه .

فعندما يرتبط ضمير الفرد بربه من طفولته ويرتبط سلوكه بتقوى الله ورجائه يأمن من كل العواصف المزججة والهزات العنيفة عند كبره ، وما أكثر أولئك الذين لم يحرصوا من طفولتهم بالتربية الإسلامية الصحيحة ، فما كانوا يتعلمون قليلا من العلم ويقرأون بعض كتب الفلسفة الغربية حتى انحرفوا عن الجادة وتاهوا في أودية الضلال .

### مواهبه واجتهاده ومناصبه :

استطاع بفضل مواهبه ، وجهاده الدائب من أجل العلم أن ينال منه حظا وافرا مكنه من الاحراز على شهادة في العربية تدعى بالفرنسية : ديبلوم داراب Diplome d Arabe وذلك في امتحان جرى بالجامعة الجزائرية الفرنسية يوم 19 جوان 1894 م وفي هذه السنة ناب عن الشيخ أبي القاسم ابن سديرة في دروسه العربية بالجامعة فلبث فيها سنة واحدة مع التزامه بالتعليم .

وكان للأستاذ اهتمام كبير بتعلم اللغات الأخرى إلى جانب اللغة العربية لايمانه بأن الرجل بتعدد لغاته ، فأقبل على الفرنسية والإنجليزية والتركية يدرسها بشغف وظماً فنال منها نصيباً وافراً مكنه من التوسع فيها ، والغوص على كنوزها ، والانتفاع بها في حياته العلمية والعملية .

وفي سنة 1896 م شارك في امتحان " البكالوريا " فأحرز على شهادتها ولما كان ثمنه في العلم يتزايد بالدراسة والبحث في التحصيل رأى أن يضيف إلى اللغات التي درسها لغات أخرى هي الإسبانية والألمانية واللاتينية فأتقنها هي الأخرى وأصبح يتحدث بها في إطلاق تامة مع موافقة اللهجة وحسن التأدية " حتى كان الكثير ممن لا يعرفه يعتقد عندما يسمعه يتكلم باحداها أنه من صميم أبنائها " (12).

وفي سنة 1898م عينته الأكاديمية بالمدرسة الكتانية بقسنطينة خلفاً للعلامة الشيخ عبد القادر المجاوي (13) عندما انتقل منها إلى المدرسة الثعالبية بالجزائر ..

والواضح أنه لم يعين في هذا المنصب إلا لمكانته العلمية المرموقة وشخصيته القوية المتميزة لأن المجاوي مفخرة أهل العلم في زمانه علماً وسمعة وشخصية ، فكان على خلفه أن يبذل الجهد في أداء الرسالة وفي الانضباط أيضاً والالتزام حتى يكون في المستوى ، وهذا ما كان منه فعلاً فقد بذل جهد الطاقة في مهمته مما رشحه لمنصب المدرس في المدرسة الثعالبية بالجزائر وبدأ التدريس فيها سنة 1901 م .

ويبدو أن كلفه بالعلم وانقطاعه إليه دارساً وباحثاً هو السبب في تأخر زواجه إلى أن بلغ أربعاً وثلاثين سنة وكان ذلك في سنة 1903 م .

وعين في نفس السنة أستاذاً بالجامعة الجزائرية لتدريس علم العروض والبحث في اللغة الدارجة والمقارنة والتنظير بينها وبين اللغة الفصحى وكان يقوم بالمهمة في المؤسستين خير قيام ولا يفضل إحداهما على الأخرى ولا يظهر جهداً أو نشاطاً في درس دون آخر ، بل كان في كل درس يلقيه كعادته مثلاً للمخلص المتفاني في عمله .

وفي حوالي سنة 1904 م أسندت إليه دراسة الإمام البخاري بجامع سفير العاصمة وهنا بلا شك يدل على عمق كبير ، وباع طويل في العلوم الدينية مما يلفت النظر إلى أن تضلعه في العلوم العصرية واللغات الأجنبية لم يكن على حساب الثقافة الإسلامية ، وهذه ظاهرة جديرة بالإعجاب والتقدير في الأستاذ. وفي سنة 1908 م ارتقى إلى رتبة محاضر بالجامعة الجزائرية فاضطلع بالمهمة - كعادته - خير اضطلاع ولم يكن يقصر إزاء ذلك في المطالعة الجادة ، والبحث والكتابة .

ولما ذاعت شهرته وطارت نحو الشرق والغرب وعرف أهل العلم قدره وصاروا يخطبون وده ويراسلون انتخبه الجمع العلمي العربي بدمشق عضواً وذلك سنة 1920م وصار يكتب في مجلته العلمية أبحاثاً قيمة مستفيضة في اللغة والأدب والتاريخ .

وفي هذه الأثناء - وهو محاط بمالة مشرقة من التقدير - ألح عليه رجال العلم بالجامعة الجزائرية أن يتقدم لنيل " الدكتوراه " فأبى ولكن شدة الإلحاح التي لم تفتأ تحاصره في كل وقت جعلته يلبي الرغبة فتقدم ببحثين هامين أحدهما عن الشاعر أبي دلالة ، والثاني عن الألفاظ التركية والفارسية الجارية على اللسان

الدارج في الجزائر فنال بمها شهادة " الدكتوراه " بدرجة ممتازة من جامعة الجزائر مما أهله ليكون أستاذا رسميا بكلية الآداب في الجزائر العاصمة يمة 1924م عوضا عن الأستاذ " كولان " الذي توفي في هذه السنة .

ولكفاءة الأستاذ العلمية المتميزة ، وأسلوبه الرصين الشيق ، وتمشية مع مختلف الأذواق في الأدب وإدراكه لحاجات النفوس وانفعالاتها والقدرة على تصويرها .  
ولروحه العربية الإسلامية العالية كانت دروسه مهوى الأفتدة ، ومنتجع الأرواح ، يكتشد إليها طلاب العلم في ظمأ وتلهف ، بل حتى أساتذة من الجامعة ومن مختلف المدارس الحكومية كانوا يحضرون دروسه ويحرصون عليها كل الحرص ويبالغون في احترامه وتقديره .

ولمعت أسماء كثيرة من تلاميذه في مختلف الميادين العلمية والأدبية وكانوا على فحج أساتذهم في البحث العلمي والحرص على نشره والنفع به .

وفي هذه الأثناء انتخبه المجمع العلمي بباريس عضوا عاملا به ، وبهذا ارتقى في معارج العرفان والنجاح المطرد الذي لا يتحقق إلا قليل من رجال العلم .

كثر مقدروه المبتهجون له وبأعماله فكثرت حساده وأمعنوا في الحقد عليه والبغض له ، ربما حاربوه وكادوا له . . ولكن ذلك لم يؤثر فيه ولم ينل منه شيئا لعلمه أن الحسد طبيعة الجهال في مختلف العصور وأنهم يكثرون كلما كثرت فضائل المحسود وعظمت والأستاذ صار مضرب المثل في الفضائل والكمالات فلا غرو أن يكثرت حساده ويناصبوه العدا .

والحسد وإن كان قبيحا ذميما يفضي بصاحبه إلى أوحش العواقب ولكنه كثيرا ما ينبه الحسد إلى فضل المحسود ويكون سببا في ذبوع فضائله وانتشار محامده كما

قال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة \*\*\*\* طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاوزت \*\*\*\* ما كان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم يزل \*\*\*\* للحاسد النعمى على المحسود

وقد أثبت التجارب أن الحسد يكون على حسب فضل الإنسان وظهور النعمة عليه ولذا يحسن الاستعانة على قضاء الحوائج بكتماها .

### مراسلاته مع أعلام الفكر ورجال الثقافة في العالم :

ذاع صيت الأستاذ وطبق الآفاق وخاطب وده أعلام الفكر ومشاهير الكتاب من الشرقيين والغربيين فكان ممن تبادل معهم الرسائل من الشرقيين : أحمد تيمور باشا بمصر وأء . الجمع العلمي العربي بدمشق ، منهم الأستاذ محمد كرد علي ومؤرخ تونس العلامة حسن حسني عبد الوهاب ومن الغربيين العلماء المشاهير

" كوديرة " ومقويل اسيف بلاسيوس " وفيونوفريقي " وغيرهم كثير ، وهم في كتاباتهم ما بين شاكر ومادح ومعجب ومسترشد ومستفيد .

وغني عن الذكر أن المراسلة بين أهل الفكر والنبوغ أمثال هؤلاء تكتسي أهمية بالغة لأنها تعني غالباً بقضايا الفكر وشؤون الثقافة ، وكل مراسل يبذل قصارى الجهد في افتضاض أبكار المعاني على أعماق المعارف وأسرارها ، وكانت لذهم في البحث والتنقيب والتحقيق لا تعادها لذة .

ومن هنا كانوا فيما يعالجون - في مراسلاتهم - من مسائل وقضايا أو يصفون من أحداث وطوارئ جديدين مخلصين متفانين .. مما يجعل رسائلهم في مستوى

عال من محاصيل الفكر وثمار القلم ، سواء أصدر ذلك عن نفس أرضية منشرة أم عن نفس قلقة منقبضة .. والأيام هكذا تمضي بالمفكر في اتجاهين مختلفين تتلقفه يوما متجهمه عابسة ويوما نضرة ضاحكة فعندما تكون الأولى تفيض المراسلات أنينا وشكوى ، وتألما وحزنا وعندما تكون الثانية تتموج المراسلات أملا وحلما ، ورضى وابتهاجا ، ولكن على كلا الحالين فالمعاني راقية ، والصور بديعة ، والخيال خصب رائع ..

وفيما يلي إحدى رسائله وقد بعث بها إلى صديقه مؤرخ تونس الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بخصوص كتاب ينتظره منه :

جناب سمي الشيخ ، سيدي حسن حسني عبد الوهاب الأكرم ، أدام الله بقاءه وأجزل جزاءه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فإن أشعة رسائلكم قد احتجبت عني منذ أزمان ، وتاقت النفس إلى الإطلاع عليها غاية التوقان ، فظننت ظنونا ، ورنرت رنونا ، وكلما زجرتها جشأت إلي وجاشت فحاشت ثم تحوست فحاست ، وعندما طال بيني وبينها الجدال ، وكثر القيل والقال ، عزمت على التنسيق راجيا من حضرتكم التصديق أو التيقين والتحقيق تبكيئا لها وتسكيئا للشخص.

هذا وقد كنتم وعدتموني في الأموس بنسخة من رياض النفوس ، وإلى يومنا هذا لم أقف لها على أثر ولا على خبر ، وقد شرعت في طبع كتاب طبقات علماء افريقية لأبي العرب ، فاشتد لتلك النسخة الطلب ، وذلك للمراجعة والمقابلة ، وتقييد المناقصة والمشكلة ، بيد أن الأصول عزيزة في هذا الشأن ، ولو مع وجود كتاب معالم الإيمان لكثرة ما فيه من الاقتضاب وتشويه الطبع ، وتعدد

مواضع الارتباب ، وإن كان في علمكم تأليف على هذا النمط ، فتفضلوا علي به بغير وكس ولا شطط ، ولكم الجزاء الجزيل من الملك الجليل والسلام " .

وأسلوب الرسالة كما - يغلب عليه السجع وضروب من المجاز ولا يخفى ما فيه من تكلف .. ولا ريب أن الكثير من أبنائنا المتعلمين اليوم إذا قرأوها ظنوا أن بعض ألفاظها غير عربية - جشأت - جاشت - حاشت - تحوست - وكس - لعدم ممارستهم لها في مطالعتهم وخير الأساليب ما أبلغ الرسالة ، وأبان الحجة وأفصح عن الأدلة ، ولم يحتج قارئه إلى منجد ينجده ، على أن الأستاذ إنما اعتمد هذا الأسلوب لأنه راسل به علما من أعلام الثقافة العربية وهذا ما يشفع له فيه ..

### مؤلفاته وتحقيقاته :

قليل أن تأليف الأستاذ المرحوم الدكتور ابن شنب قد اربت عن الخمسين في مختلف العلوم والفنون (14).

وهذا القدر في الواقع لا يثير عجب من يعرف نبوغ الرجل وتمكنه المتميز في مختلف العلوم والمعارف ، وجهاده الفكري والقلمي الذي ظل دائما متواصلا طوال حياته إذ كان فكره وقلمه لا يفتران ولا يتوقفان ، ولكننا إذا فكرنا في حياته المليئة بالأسفار وحضور المؤتمرات والندوات والامتحانات والتعليم في مختلف المدارس والمعاهد الذي كان يستغرق جل وقته ، ودراسته لعدة لغات أجنبية إلى درجة الاتقان ، إذا فكرنا في كل ذلك تملكنا العجب ربما إلى حد الدهشة وتساءلنا كيف استطاع أن يؤلف هذا العدد الكثير من الكتب لا سيما

وهو لم يعيش إلا ستين سنة وهي قليلة بالنسبة إلى ما حققه فيها من الأعمال العلمية والأدبية . إضافة إلى التعليم كما ذكرنا ، ولكن إذا عرفنا أن الوقت إذا استغل ونظم العمل فيه تنظيماً محكماً ووجهت فيه المواهب والطاقات توجيهها إيجابياً بناءً ، اتسع لأعمال كثيرة قد لا تخطر على بال ، ولا شك أن الأستاذ ابن شنب عرف قيمة الوقت وعرف كيف يستثمره ويستغله ، وكيف يمدده ويوسعه حتى حقق فيه مع قصره ما لا يحققه غيره في أطول وقت وأوسع في هذا المضمار .

وهنا استطرد لأرثي لحال أولئك الذين لا يقدرّون الوقت ولا يرتقون بعقولهم إلى إدراك أهميته ونفاسته ، وأنه هو الحياة نفسها ، فيضيعونه بالأيام والأسابيع ربما بالأشهر فيعيشون أعماراً طويلة ولكنها فارغة حتى إذا ماتوا حوسبوا على كل لحظة عاشوها حساباً عسيراً ، وندموا ولات ساعة مندم ، ويحضرني هنا ما قرأته في أحد الكتب أن الإمام المجتهد الشيخ محمد بن علي الشوكاني مر ذات يوم مع رفيق له بمقهى قد جلس فيه عشرات من الناس " يقتلون " وقتهم فتنهد وقال في حسرة : آه لو كان الوقت يباع لاشتريت أوقات هؤلاء !!

وهكذا فالوقت بالنسبة إلى بعض الناس - وما أقلهم - نفيس عزيز لا أنفس منه ولا أعزّ يتمنون لو يباع لاشترّوه بأغلى ما يملكون ، وهو بالنسبة إلى آخرين - وما أكثرهم - رخيص زهيد لا قيمة له ولا وزن ، بل هو عدوهم الألد يقتلونه ويمعنون في قتله واتلافه، ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى الموضوع فنقول: تنوعت تأليف الأستاذ وتحقيقاته بتنوع ثقافته ، وتعدد لغاته وهذه القائمة من مصنفاته تصور ما بذله من جهود في سبيل العلم والمعرفة ، كما تعكس تنوع

مواهبه ومعارفه :

- 1 تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب " 1906 م "
- 2 " شرح لمثلثات قطرب " 1906 /
- 3 " الأمثال العامة الدارجة في الجزائر وتونس والمغرب " وهو في ثلاثة أجزاء 1907 /
- 4 لألفاظ الطليانية الدخيلة في لغة عامة الجزائر ( مخطوط ) .
- 5 فهرست الكتب المخطوطة في خزانة الجامع الأعظم بالجزائر ( مخطوط )
- 6 مجموع الفوائد من منظوم المثلثات والقيود والشوارد 1909 م .
- 7 تحقيق وتصحيح " رحلة الشيخ الحسين الورتلاني " التي سجل فيها ما شاهده أثناء رحلاته إلى بيت الله الحرام 1908 / .
- 8 تصحيح وتحقيق كتاب " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " لابن عبد الله محمد الشريف المليتي التلمساني الشهير بابن مريم اعتمد في اثبات نصه على ثنائي نسخ مخطوطة استعارها من أهل العلم بالبلد 1908 م .
- 9 تحقيق كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " لأبي العباس أحمد الغبريني 1910 م .
- 10 صحيح كتاب " الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية " لمؤلف مجهول وهو في مفاخر ملوك تلك الأسرة من جهاد وغزوات وتأسيس مدن وتصينها بالأسوار وتجميلها بالمساجد 1920 م .
- 11 بو دلالة وشعره " وهو أطروحة نال بها الدكتوراه 1922 م .
- 12 تصحيح وتحقيق كتاب " طبقات علماء افريقيا " لأبي العرب محمد بن

أحمد بن تميم التميمي ومعه كتاب " طبقات علماء تونس " لأبي العرب المذكور  
فجاء المجموع أنفس الكتب وأثمنها لمعرفة افريقيا في عهد بني الأغلب 1915 -  
1920 م .

13 شرح " ديون علقمة " للأعلم الشنتمري 1925 م .

14 شرح " شواهد جمل الزجاجي " في النحو 1927 م .

15 وله تأليف في تاريخ الرجال الذين رووا صحيح الإمام البخاري وبلغوه  
للجزائر واختلاف طرق الرواية في ذلك 1905 م .

16 كتاب ضخيم في الأمثال العامة السائرة بالمغرب العربي شرحها بالفرنسية  
وهو كتاب مهم نفيس في ثلاثة أجزاء طبع بباريس 1907 م .

17 كتاب بالفرنسية بين فيه مآخذ " دانت " من الأصول الإسلامية في كتابه  
" ديفينا كوميديا 1910 "

وله كتب أخرى وتحقيقات وشروح تشهد كلها بنبوغ الرجل وتمكنه في الثقافة  
العربية والأجنبية وتذكر بأعلام الفكر الموسوعيين الذين أثروا بعقولهم وأقلامهم  
الثقافات الإنسانية ووثقوا بين الناطقين بالضاد وغيرهم من مختلف الأجناس  
عرى، المودة والإخاء وأجروا مناهل العلم والمعرفة فعملت عملها في تاريخ  
التمدن والحضارة .

أما محاضراته وأبحاثه في مختلف الأغراض والمجالات والمناحي فأكثر من أن  
تستقصى ، فمن أراد التوسع والاستزادة في الموضوع فعليه بالخصوص بكتاب  
الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي أورد منها الكثير .

ولا بد - في نهاية هذا المحور - أن نلاحظ أن العبقرية ثمرة الجهاد الدائب



والعمل المتواصل ، والصبر الجميل ، وهو ما يفضي بالإنسان حتما إلى النجاح الذي يحفز بدوره إلى مواصلة العمل .

أما المواهب الفطرية وحدها فلا تجدي نفعا لا محدودا ... ولنضع في حسابنا هذا الأستاذ الذي تميز بالذكاء والفهم والنباهة لو لم يجهد بدنه وبم يسهر جفنه ، ولم يحد في طلب العلم ثم في نشره بالفكر والقلم ، فهل تكون له هذه العبقريّة . فكم من أذكاء ضرب المثل بهم ولكن لم يسيروا وراء طموحهم في الطريق الصاعد ولم يلقوا بأنفسهم في خضم الحياة ، ولم يستغلوا مواهبهم في الميدان فمضوا دون أن يتركوا بصمة تدل على مرورهم يوما بهذا الوجود !

### أخلاقه وسجاياه :

كان رحمه الله لا يتكلف في سائر شؤون حياته ، وكان طبعه البساطة فيهبش في وجه كل أحد ويمارحه ، قليل المخالطة ، كثير الصمت ، متعصبا لدينه ، منتصرا فيه ، حلوا في محادثته ومفاكحته ، ولوعا بالنكتة ، شغوبا بالأمثال العامية ينقلها ويستشهد بها في محادثته ، شديدا في اختبار تلامذة المدارس أيام الامتحان السنوي ، " وينتقد الآباء الذين يلحون على الأساتذة في تقديم أبنائهم من دون مراعاة لمكانتهم ومستواهم العلمي ويقول : إن من الإهانة للعلم أن تعطي الشهادة لغير مستحقها وفي هذا تغرير للأمة حتى آمالها تعلق على قوم جهال بصفة أنهم علماء حاملون لشهادة العالمية ، وأيضا هو أمر يسيء سمعة المشائخ والمدرسين عند ذوي العرفان ، والمسؤولية عليه عظيمة في المستقبل" (15).

كثير من الناس يحصرون الأمانة في قيام الإنسان بحفظ ما يودع لديه من مال أو

غيره ، وهذا تضيق لحدودها ودائرتها ، فإن الأمة واسعة تشمل جميع التكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية ، فالطالب أمانة لدى ممتحنه ، فالواجب أن يعطوه حقه لا أقل ولا أكثر ، فإن هم بنحسوا حقه أثموا وأستوجبوا عقاب الله ، وإن هم منحوه ما لا يستحق أثموا أيضا وحق عليهم من العقاب ما حق على الغاش المزور ..

والمؤسف أن هناك من ينتسبون إلى العلم ممن لا يراعي هذه المسؤولية ولا يحترم الأمانة فيعطي الشهادات العلمية لمن لا أهلية له ، وكثيرا ما ترتفع الشكاوي من سوء التعليم وانحطاط مستواه في مجتمعنا الحاضر ، وأهم أسباب أولئك المعلمون الجهال الذين يحملون الشهادات زورا وكذبا ، ومن هنا تتجلى هذه الأخلاق التي تحلى بها الأستاذ محمد بن أبي شنب وموقفه ممن يعطون الشهادات لغير مستحقيها .

ومن أخلاقه أنه إذا شاهد مظلمة أوفتته حاج هائجه ، وثار ثائره واحمر وجهه ولا يهدأ إلا بعد أن تحمد نار الفتنة .

وكان غيورا على الدين والوطن واللغة العربية معتزرا بها ومدافعا عنها ولم يكن مفتونا بالحضارة الغربية وزخارفها وإنما كان يأخذ النافع منها بقدر الحاجة إليه ، وهذا رغم تفتحه على العالم الغربي بثقافته الواسعة ومعرفته لكثير من العواصم الأوروبية ومصادقته للعديد من العلماء الأجانب .

وكان لا يجد راحته إلا في البحث والدراسة والتأليف وحتى في عطلته الصيفية التي يقضيها في مسقط رأسه " المدية " كان لا يترك العمل ولو بوضع فهارس تفصيلية لبعض كتبه وهذا يذكرنا بنا بـ مصر الأستاذ أحمد فتحي زغلول ، فقد

ذكر الأستاذ لطفي السيد أنه زاره في بيته في يوم حر شديد فألفاه يضع نرح القانون المدني وإلى جانبه كتاب " سر تطور الأمم " وقد فرغ من تعريبه في بضعة أسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه ، فأشفق عليه من هذا الشغل الشاق في جو محرق ، وفي حالة صحية متضعضعة فسأله : أبهذا ترتاض يا سيدي الباشا ؟ فقال : نعم هذه رياضي .

وابن أبي شنب وأحمد فتحي زغلول وأمثالهما في استغلال الوقت واحترامه هم الذين يجب الاقتداء بهم وترسم خطاهم .

وكان لا يتكلم إلا مستنطقا ، والصمت في الواقع سكوت ولكنه إيجابي لأن سكوت العلماء المفكرين لا يخلو من الخواطر النفسية والذكريات العزيزة فالصمت إذن بالنسبة إلى الأستاذ كائن حي يتكلم لأنه تذكر لما مضى وتخطيط للمستقبل .

وإذا كان ضعف الإرادة عيبا قد تأصل في كثير من الناس فإن ابن أبي شنب قد حفظه الله منه يشهد لذلك أنه ما أزمع على شيء تيقن أنه صالح مفيد إلا أقدم عليه ونفذه من غير تردد أو ضعف أو كسل ، فلولا هذه الإرادة التي كانت من طبائعه وسجاياه ما كانت حياته كلها سلسلة من جلائل الأعمال وألد خصم في الإنسان لتحقيق آماله في الحياة هو ضعف الإرادة أو نفورها من الجهد، ولا سيما الجهد المطرد ، فكم عندنا من رجال لهم وزهم الفكري والعلمي عاشوا أعمارهم طويلة دون أن يتركوا عملا يذكرون به ويخلدون أسمائهم في التاريخ ، وما ذلك إلا لضعف إرادتهم ، وما أجدر أجيالنا الصعدة بالخصوص أن يقتدوا في قوة الإرادة ومضاء العزيمة بهذا الأستاذ الإرادي الذي

ظل بإرادته وعزمته شابا مجاهدا حتى آخر لحظة من حياته .

وكان شجاعا لا يخاف ولا يتهيب ، شهد له بذلك زملاؤه وأترابه ودلت على ذلك مواقف لا يقفها إلا قوي الإرادة ، راجح العقل ، متزن منضبط ، ولا عجب فذو الإرادة الماضية لا يكون إلا شجاعا لأنه إذا اقتنع بأمر تمسك به ، وإذا رأى الصواب في قول جاهر به .

وإذا كانت الشجاعة طبيعة محمودة في كل إنسان فإنها في العلماء أجل وأفضل لأن العلماء من شأنهم أن يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر - لمكانتهم في المجتمع واقتداء الناس بهم ويقولوا للمسيء أسأت مهما كانت قوته ومنصبه ، ويحاربوا الظلم مهما كثر أعوانه وأنصاره ، ويشتدوا على مقترفي الفواحش ومروجيها بالإنكار والنديد .. وهذا لا يتأتى إلا للعالم الشجاع ، لا تأخذه في الحق لومة لائم !!

وكان لا يتأثر من الكائدين الذين لا تخلو منهم حياة أهل العلم والمعرفة والأديب والفضل ، لجهل الكائدين بفضل أولئك وقيمهم ، وحسدهم لهم .. فهو مترفع عنهم لعلمه أنهم مرضى جديرون بالشفقة والرثاء لحالمهم ، وأنى للبحر أن يتكدر بحجر يرمي فيه ؟ فإذا كان همهم الشاغل أن يضعوا الأشواك في الطريق ، وينصبوا المكائد والفخاخ ، ويحاولوا أن يخمدوا الغرائم ويشلوا الإرادات ، ويسدوا الأبواب والمنافذ ، فإن همهم أن يتطلع دابا إلى أعلى ويمضي دوما إلى الأمام ، غير لاهو على شيء ، وتلك هي طبيعة العظماء لا يبالون بنباح الكلاب ، ولا بذر الرماد ، فقافلة النور ماضية إلى غايتها ﴿ وإذا خاطبهم

## الجاهلون قالوا سلاما ﴿١٦﴾.

وكان ذكيا لبقا حسن التفاهم مع مختلف الطبقات ، وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن حسن التفاهم بالنسبة إلى العالم المثقف أمر ضروري مسلم بالبداهة ولكن الأمر ليس بهذا الإطلاق فكم من عالم معقد لا يحسن التفاهم في أحواله وأفعاله وما يعرض له من الشؤون العامة والخاصة سواء مع جيرانه أو طلبته أو مع الأبعاد ، فحسن التفاهم طبع حميد لا يتصف به إلا من أحبه الله ولذا يقول الشاعر :

تمسك بأهداف اليقين ولا تكن \*\*\* غضوبا سريع الحكم حين التخاصم  
فكم من خصام جر وىلا عرمرما \*\*\* وأسبابه في البدا سوء التفاهم  
وإذا كانت الأخلاق الكريمة - ومنها حسن التفاهم - جميلة في كل شخص فإنما في أهل العلم والمعرفة أجمل وأفضل ، لأننا مفتاح خزانهم العلمية فالعالم إذا كان سيء الأخلاق سريع الغضب ، صعب التفاهم ، يتحافاه الناس ويتقون غضبه ، ومن ثم فهم لا ينتفعون بعلمه ، فتبقى خزائنه العلمية موصودة مغلقة وأذكر أن في جامع الزيتونة - أيام كنت طالبا - عالما يشهد العلماء بتفوقه في مختلف العلوم والفنون ولكنه كان فظا غليظا لا يسأله - وقلما يسأل - إلا ورجع منه نادما وإذا كان الأستاذ ابن شنب على درجة عالية من العلم والمعرفة والذكاء فإن ما كان يستميل إليه القلوب أكثر، ويشد إليه المشاعر والأحاسيس هو أخلاقه الكريمة الفاضلة كما يذكر ذلك عنه من عرفوه وصاحبوه !!  
وهل يعني هذا أن الأخلاق الفاضلة خير من العلم والمعرفة والذكاء فإن ما كان

يستميل إليه القلوب أكثر ، ويشد إليه المشاعر والأحاسيس هو أخلاقه الكريمة  
الفاضلة كما يذكر ذلك عنه من عرفوه وصاحبوه !!

وهل يعني هذا أن الأخلاق الفاضلة خير من العلم والذكاء ؟

الذي لا نزاع فيه هو أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوان بالاجتماع والتآلف والتعاون ، وهذه تتوقف بالدرجة الأولى على الأخلاق أكثر مما تتوقف على العلم والذكاء فالأخلاق الفاضلة الكاملة إذا اجتمعت في الإنسان ولو كان قليل العلم والذكاء ملك القلوب والمشاعر : أما العالم الذكي الفظ الغليظ فإن الناس ينفرون منه ولا ينتفعون به ، ومن هنا كان الانتفاع بالأستاذ كبيرا لنبل أخلاقه ، وعلو سجايه .

وكان شغوفا باقتناء الكتب الهامة المطبوعة والمخطوطة مما جعله يكون في داره مكتبة غنية بأنفس الكتب وأئمنها ، ولا ريب أن أفضل ما يعني به المرء وخير ما يدره، كتب يطالعها ويستخرج منها الكنوز العلمية ينمي بها معارفه ، ويوسع مداركه وينفع الناس ويهديهم إلى سبيل الهداية والرشاد .

وهذا ما جعل الأدباء والعلماء على اختلاف مراتبهم وتباين مشاعرهم عبر العصور يتبارون في اقتناء المكاتب وقد عقد أحد الأدباء من قول شيشرون الشهير :

شيشرون قال قدما \*\*\* حبذا قول النصوص

إن بيتا دون كتب \*\*\* جسد من غير روح

وقيمة الكتب وأهميتها بمطالعتها والانتفاع بما فيها من علم وأدب وهذا طبعاً إنما يأتي للعال ، وأما الجهول فإنه إذا اقتنى كتباً فإنما يحنطها كما قال الأديب "

عيسى اسكندر المعلوف " متأسفا :

لعمرك ليس ممتنها لكتب \*\*\*\* وآثار سوى غر جهول

ف فوق " مخنطات من جسوم " \*\*\*\* تعد " مخنطات من عقول "

تلك طائفة من أخلاق الأستاذ وسجايه فقدمنها ليقندي بها طلبة العلم بالخصوص ، وإذا كانوا في حاجة إلى علم العلماء ، وأدب الأدباء ، فإنهم إلى أخلاقهم الفاضلة أشد حاجة لأن الأخلاق هي التي تمثل الأمم أكثر مما تمثلها سائر المواهب والعلوم " والأمة إنما ترتقي أو تسقط أو تسوء وتذل بأخلاقها لا بعلمها ولا بثروتها ، فاعتبر ذلك في تاريخ الأمم قديما وحديثا فإنك لا تجد النصر إلا حيث تكون الأخلاق الراقية : فخص الرومان وهم أهل خشونة وشظف من العيش ولم يمض زمن طويل حتى فتحوا العالم المتمدن حول البحر المتوسط وتسلطوا على أمم شتى خضعت لهم ليس ذلك لقلّة أموالها أو جهل أهلها بل لضعف أخلاقها حسبك منها اليونان وهم أصحاب العلم والفلسفة دانوا للرومان وهم أهل جهالة وخشونة — كما أشرنا — وإنما غلبوهم بأخلاقهم اللازمة ، المفتوح في ذلك العهد كالبسالة والثبات والاتحاد " وإذا تتبعنا تاريخ الأمم والشعوب وجدا أمثلة أخرى على ذلك ، والشاعر أحمد شوقي مصيب أيما إصابة في قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت \*\*\*\* فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تواضعه ودينه :

اشتهر الأستاذ بمكارم الأخلاق وقد ذكرنا بعضها ، كما اشتهر بالتهدين والخوف

لربه ، ولأن هذين الأمرين بارزان فيه وغالبان عليه أفردناهما بالذكر في هذا المحور : كان التواضع أبرز ما جذب القلوب إليه ، كان طبيعة متأصلة فيه يتواضع مع مختلف الناس عالمهم وجاهلهم وصغيرهم . غنيهم وفقيرهم حتى قالوا لو أن الحكومة لم تعنه على إظهار مواهبه ونبوغه ولم تعمل على فسح المجالات أمامه لظل خاملا غير معروف ولما بلغ الغاية التي بلغها ، وحقق من جلائل الأعمال

ما حقق ، ومن هنا نلاحظ أن الحكومات في مختلف البلدان لو تهتم بعلمائها وأدبائها وتأخذ بأيديهم وتشجعهم وترعى إنتاجهم لازدهرت أسواق العلم والأدب وارتقت المواهب ، وثقفت العقول ، وكان لتلك البلدان شأن آخر في الرقي والازدهار !!

وكان الأستاذ ابن شنب متواضعا مع سائر الناس ، ولا غرو أن كون متواضعا فالعالم الحق كالشجرة المملأى بالثمار تتدلى أعضائها إلى الأرض لينال منها طويل القامة وقصيرها ، أما الشجرة الفارغة من الثمار فإنها تتعالى لفراغها وخفتها وهكذا طبيعة الأكفاء أولي الهمم العالية ، والنفوس الكبيرة بجانب الكبر والخيلاء. أما تمسكه بدينه فندع الأستاذ الأديب المرحوم الشيخ السعيد الزاهري يروي لنا ما يلي :

كانت أول معرفتي بالشيخ أن كنت بتونس في سنة 1922 م وأنا يومئذ لا أزال أطلب العلم في الكلية الزيتونية ، وجاءتها في تلك السنة لجنة من العلماء الفرنسيين لامتحان طلبة البكالوريا في تونس وكانت هذه اللجنة تحت إشراف المرحوم الدكتور ابن أبي شنب فاستغرب الناس في تونس أن يكون عالم جزائري

غير متجنس بالجنسية الفرنسية رئيسا مشرفا على لجنة علمية فرنسية يرأس جلستها بملابسه الجزائرية وبزيه الجزائري ، وتعالّم الناس هذا الخبر وسمعتة أنا وفرحت به وداخلني يومئذ شيء من النخوة والكبرياء وجمعت إخواني الطلبة الجزائريين وذهبنا نزوره وكان اليوم يوم أحد لا يعمل فيه فلقينا لقاء حسنا ..

وبينما نحن جلوس عنده إذ حضرت صلاة العصر فقام فصلى النافلة أربع ركعات ثم أقام الصلاة المكتوبة ولما فرغنا من الصلاة سألته : كيف تصنع إذا أدركتك الصلاة ، وأنت في جلسة رسمية ؟ فقال : أقف الجلسة للاستراحة فيستريح الزملاء بخطوات يمشونها ودخائن (17) يشغلونها وأستريح بأداء المكتوبة وأجد من الراحة في صلاتي ما لا يجدونهم في مشيهم وتدخينهم .

وأراد الشيخ أن يمضي في حديثه هذا فقاطعته أنا وقلت : ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حذب المسلمين أمر يلجأ إلى الصلاة ويقول : " أرحنا بها يا بلال " ففرح الشيخ بهذه المقاطعة وقال : لقد أردت أن أقولها فسبقتني: ثم ودعناه وانصرفنا ونحن نتمنى لشبابنا المتفرنجين أن يتعظوا بهذا الشيخ الجليل (18)

وكان رحمه الله كثير المحافظة على الشريعة الإسلامية وإذا دافع عن مبدأ من المبادئ الدينية فاضت قريحته ، وارتفع صوته ، وقويت حجته فيسحر العقول بحسن بيانه ويفتن الألباب بقوة برهانه .

### اعتزازه بالعربية :

بالرغم من تعدد لغاته ، وتضلعه فيها ، واختلاطه الدائم بالعلماء الأجانب ،

وكثرة التحدث معهم في مختلف الأعمال العلمية والثقافية وكثرة أسفاره إلى العواصم العربية فإن اللغة العربية كانت وسام شرفه ومبعث اعتزازه ..

وقال الشيخ محمد العاصمي في خطاب له يوم ذكرى الأربعين لوفاة الأستاذ :

" أنه عتب يوما بمحضري على نجل من أنجاله في مكتبه السيد قدور رودوسي

عتابا مرا في كلمة نطق بها بغير لغته القومية ، ومما قاله : ألم نتفق ؟ ألم نكن عربا ، وأن مخاطباتنا يجب أن تكون باللغة العربية ما دمنا نجد فيها كل طلباتنا ( 19). والذي يثير الأسى ، ويبعث في النفس التقزز والاشمئزاز أن بعض الناس لا يكادون يحفظون كلمات من اللغات الأجنبية حتى تراهم يزاوجون في الجملة بين العربية والأجنبية ، أما من يعرف إحدى هذه اللغات فلا تسمعه في المحادثات والمفاوضات إلا بتلك اللغة ، وإذا حاولت أن تنقله إلى العربية لأنها لغتكما استضألك ونظرا إليك بشطر عينه ، وكلمك ببعض شفته ، أو ربما تجاهلك وتشاغل عنك بشيء هو أهم منك !!

وهناك من يفضلون التحدث بالفرنسية - مثلا - يوثرونها على العربية لضعف شخصيتهم ، وهوان نفوسهم ، ويعجبني في هذا المقام قول المرحوم الدكتور زكي مبارك :

إن المثل الأعلى للأديب أن يتفقه في لغته أولا ، ثم يدرس من اللغات ما يشاء ، والأدباء الناهجون في الدنيا هم أدباء لغتهم أولا ، أما المخلوقات الحديثة التي تجهل اللغة العربية ثم تتحدث عن ذخائر الآداب الأجنبية فهي من مبتدعات الشيطان في هذا الجيل ، وحين ندرس أقطاب الأدب في الجيل الحاضر نجدهم من أهل البصر بلغاتهم وكذلك كان الحال في كل أرض وكل زمان " (20)

وليت أولئك المتشدقين بالتحدث عن الثقافات الأجنبية يحسنونها ويجيدونها ولكنهم في الواقع لا يعرفون إلا قشورا منها ، ولكنهم يفعلون ما يفعلون لنقصان فيهم يحاولون تغطيته . فما أجدر ضعاف النفوس ومهزوزي الوطنية الذين يريدون الارتقاء واكتمال الشخصية باللغات الأجنبية ويرون أن العربية أعجز من أن تسعف اللسان ، وتجاري البيان ، وتحدد الفكرة ، أن يقتادوا بالأستاذين الكبيرين الدكتور ابن شنب والدكتور زكي مبارك !!

### الدكتور ابن شنب والسياسة :

كان رحمه الله - كما قدمنا - موسوعة في كثير من العلوم والمعارف جيدا لعدة لغات أجنبية كالفرنسية ، والإيطالية ، والألمانية ، والفارسية والتركية ، وكان إذا تحدث في أي موضوع علمي — كان أو أدبيا أو غيرهما — يتحدث بعمق رؤية واضحة وظننته لا يجيد غير ذلك الفن أو ذلك الموضوع وهذه السعة والشمولية وهذا التفوق في المعرفة يجعلك تتصور أن له اتجاهها في السياسة ونظريات فيها ، ولكن الأمر ليس كذلك ، يتحدث في كل شيء ويهتم بكل شيء مفيد إلا السياسة فإنه يتحاشاها ولا يحوم حولها ، ويقول عنه تلميذه وصديقه الشيخ عبد الرحمن الجليلي : " لم تنقل عنه كلمة واحدة في هذا الموضوع الشائك ولعله في ذلك كان متأثرا بكلمة الأستاذ الإمام الـ .  
القاتل : " أعوذ بالله من السياسة — ومن لفظ السياسة " (21)

وقد تكون محافة الأستاذ للسياسة لا تأثرا بالإمام وإنما لأن السياسة في مفهومها المعاصر المتعامل به هي الغش والخداع .. والمغالطة والتضليل والاحتيال ، ودس

الدسائس ونصب المكائد ، وإخضاع الحق للقوة ، والثناء باللسان ، والطعن باللسان ، وهذا ما يتنافى وأخلاق العلماء وخاصة الذين تشبعوا بروح الإسلام وتطعموا بأخلاقه ، ولن تنجح السياسة حتى يكون قوامها خدمة الحق ، ونصر المظلوم ، وإجراء الأمور في مجاريها الطبيعية على أساس معرفة العواطف والمشاعر والأحاسيس كما قال " بسمارك " : إن العوامل المعنوية أشد رجحا في سياسة من العوامل الحسية فنجاح رجل السياسة يتوقف على إدراك تلك العوامل الخفية غير المحسوسة الدائرة على عواطف الشعوب وميولها ومشاعرها وأهوائها (22) فأين ساسة اليوم من هذا الأفق البعيد : السياسي ؟

وعندما زار الإمام الشيخ محمد عبده الجزائر في صيف سنة 1903 م وكان الأستاذ ابن شنب من العلماء الذين قابلوه ، وهم - كما ذكر سعد الدين بن أبي شنب - الذين كانوا يغشون المكتبة الثعالبية التي كانت في ذلك العهد مألّف العلماء ورجال الفكر وهم على فرقين : فريق مؤلف من المتمسكين بالقديم والمحافظين عليه لا يرضون بأي تجديد ولا يميلون إليه ، وفريق متفتح لمحاسن الشرق والغرب الحديثة في ميداني العلم والثقافة ، فمن الفريق الأول هؤلاء الشيوخ : محمد السعيد ابن زكري ، علي بن الحاج موسى ، عبد القادر المجاوي ، أبو القاسم الحفناوي ، عبد الحليم بن سماية ، ومن الفريق الثاني الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، محمود بن دالي عمر ، مصطفى الشرشالي ، عبد الرزاق الأشرف ، محمد بن أبي شنب .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا التصنيف أن الأولين كانوا خصوما للآخرين وإنما كانوا يتمسكون بنماذج التفكير القديمة ، وأساليب العلم التقليدية ، ولا

يأخذون من التطور المعاصر إلا القليل كضرورة إصلاح التعليم مثلا ومقاومة البدع والخرافات (23).

والملاحظ أن لهذه الزيارة أثرها الطيب في الأوساط الفكرية والعلمية بالجزائر ، ذلك أن هؤلاء العلماء وغيرهم كانوا يتابعون باهتمام بالغ حركة الإمام الإصلاحية بالشرق عن طريق مجلة " العروة الوثقى " ثم " المنار " وكانوا بلا شك يتلهفون شوقا إلى معرفة هذا المصلح العظيم الذي يعد بعلمه ومواهبه الفطرية وشجاعته ومواقفه البطولية أمة لاجتماع كثير من صفات الكمال فيه : وليس على الله بمستنكر \*\*\*\* أن يجمع العالم في واحد (24)

ولما جاء الجزائر تفاعلوا مع أفكاره وآرائه مع قصر المدة التي قضاها معهم لأنهم كانوا مهئين لهذا التفاعل من قبل ، وكانت خلاصة نصائح الأستاذ "الإمام وجلسائه : " الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية " لأنه رأى أن لا نخضة إلا بالعلم وأنه بالعلم أيقظ الشرق من رقدته ، وأطلقه من عقاله ، ودفع به في طريق الإصلاح .. وقد تحدث الأستاذ الإمام في مختلف مجالسه العلمية بالعاصمة عن قضايا كثيرة ومسائل متنوعة تدور في فلك النهضة الإصلاحية ، أما السياسة فقد أوجب عل نفسه ألا يخوض فيها إلا الوصية بطاعة الحاكم لأن فرنسا إذ ذاك كانت تظهر للشرق ولأعماها بالإغاثة والنصرة (25).

وممن لازموا الأستاذ الإمام في هذه الزيارة مفتي المالكية الشيخ محمد بن زاكور ، ومفتي الحنفية الشيخ محمد بوقندورة ، والشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، وعبد الرزاق الأشرف ، والشيخ عبد الحليم بن سماية ، وكانت الأيام العشرة التي قضاها بالعاصمة أياما بارزة في تاريخ الجزائر ظلت وستظل شغل العقول



والأفلام .

### مرضه ووفاته :

ظل الأستاذ ابن شنب عنى ما طبع عليه وتعود من الجد والنشاط في ميدان العلم بحثا ودراسة وتأليفا وتحقيقا وترجمة حتى أصابه مرض أنك جسمه وأضعف قواه وألزمه دخول مستشفى " مصطفى باشا " بالعاصمة ، فبقي فيه شهرا كاملا ولكن ذلك لم يجده نفعا حيث ظل يعاني من آلام المرض ومنغصاته، وفي يوم الثلاثاء 26 من شعبان 1347 هـ الموافق لـ 05 فيفري 1929 م التحق بالرفيق الأعلى وشيعت جنازته في الغد في حفل خاشع رهيب حضره ممثلو الهيئات الرسمية في الحكومة وأساتذة الكليات والمدارس والمعاهد وأعيان البلد ومختلف الطبقات الواعية ، وكلهم حضروا إلى مقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي ليودعوا رجلا عاش كل عمره للعلم والمعرفة والتربية والتعليم ، وأبنة جمع من العلماء والشعراء عبروا جميعهم عن حزنهم وحزن الجزائر لموته ، وصوروا كفاءته ونبوغه ومكانته بين أهل العلم ورجال الفكر في العالم .

ولا غرو أن يحزنوا لموته ، ويذرفوا عليه الدموع ويتأثروا بالغ التأثير لفقده ، وتأوهوا آهات صرى تثير الأسى وتفري نياط القلوب ، فالعلماء يضيئون للأمة جوانب الحياة .. ويهدونها سواء السبيل والشعراء يصورون عواطفها ويترجمونها ويدافعون عن أعراضها، والخطباء يحكيون أحاسيسها ويوحدون صفوفها يجمعون كلمتها ، والأبطال يدافعون عنها ويحمون ذمارها ، ويموتون في سبيل عزها وكرامتها .

وإذا امتدنت الأمة وارتقت مداركها واتسعت معارفها عرفت قدر رجالها ووفت لهم أعظم الوفاء وبكتهم بحرارة وسخاء يوم يموتون ، ونحت لهم التماثيل ، وأقامت لهم الأنصاب بعد موتهم ، وألفت الكتب في الشاء عليهم والإشادة بفضائلهم .

وفاته عرفت قيمته ووزنه ، ووفت له بعد موته فأحييت له ذكريات ، وألفت في التنويه بقدرته ما ألفت ، وأطلقت اسمه في عهد الاستقلال على معاهد علمية ومدارس ثانوية ، وإن كان ذلك قليلا في حقه بالنسبة إلى منزلته ولكن سيفد على ساحل الحياة في المستقبل من سيعرف مكانته ويدرك أثره الكبير في علم الثقافة فيفي له أكثر كما وفي هو للعلم والأدب والمعرفة ، فإن الورد الفواح وإن توارى في الحشائش والنباتات ولم تبصره العيون فإن عطره لا بد أن يكشف عنه ويهدي إليه ، ومن عجائب الصدف وغرائب الاتفاق أن كان آخر دروسه بالجامعة شرح هذين البيتين لأبي العلاء المعري :

رب لحد قد صار لحدًا مرارا \*\*\* ضاحك من تراحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين \*\*\* في طويل الأزمان والآباد (32)

وقال في أربعينياته رسول البيان الأستاذ الإبراهيمي : ( مات محمد فأيقن زملاؤه وشركاؤه أنهم فقدوا بفقده ركنا من أركان العلم الصحيح ، وعلمنا من أعلام التاريخ الصحيح ، ومثالا مجسما من الأخلاق العالية والخصال الرفيعة لا بل فقدوا معيارا من أصدق المعايير لقيم الروبات عينا لا نغر صاحبها بالسراب ) .

المصدر : أعلام من المغرب العربي ( الجزء الأول ) الأستاذ محمد الصالح

الصدىق (بتصرف)

## الهوامش :

- 01 - توفي سنة 1835 م .
- 02 - توفي سنة 1849 م
- 03 - توفي سنة 1880 ، وقيل سنة 1915 .
- 04 - توفي سنة 1904 م .
- 05 - توفي سنة 1904 م .
- 06 - توفي سنة 1913 م .
- 07 - توفي سنة 1913 م .
- 08 - توفي في شهر أفريل 1914 م .
- 09 - توفي سنة 1915 م .
- 10 - توفي سنة 1925 م .
- 11 - عن محمد بن أبي شنب - حياته وآثاره للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 12 - أنظر الملاحق في كتاب أعلام المغرب العربي الجزء الأول  
( خطاب ) .
- 13 - سورة البقرة الآية 269 .
- 14 - محمد بن أبي شنب : حياته وآثاره للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 15 - المصدر السابق ص 16 .
- 16 - ولد بتلمسان 1264 هـ - 1848 م ، وتوفي بالعاصمة

1371 هـ — 1913 م .

- 17 - محمد بن أبي شنب حياته وآثاره ص 23 للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 18 - يقول الأستاذ الرشيد بن أبي شنب : خلف الدكتور آثارا تعد بـ 65 عنوانا فضلا عن عشرات المقالات وتحقيقات لنصوص عربية قديمة لمجلة الثقافة ع 65 س 11 سبتمبر - أكتوبر 1981 م .
- 19 - محمد بن أبي شنب ص 101 للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 20 - أنظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ص 24 .
- 21 - محمد بن أبي شنب ص 28 للشيخ عبد الجليلي .
- 22 - الفرقان الآية 62 .
- 23 - ج دحينة : وهي السجارة من وضع مصطفى صادق الرافعي .
- 24 - محمد بن أبي شنب ص 102 للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 25 - محمد بن أبي شنب ص 113 للشيخ عبد الرحمن الجليلي .
- 26 - عن الشهاب ج 9 م 2 رجب 1356 هـ سبتمبر 1936 .